(الأدب العربي قديما وحديثا): المحاضرة الثامنة

السداسي الثاني

شعر الغربة والحنين إلى الوطن

تعريفه، تاريخه، خصائصه، أشهر أعلامه في القديم والحديث

مقدمة:

يُعد شعر الغربة والحنين من أبرز الألوان الشعرية التي عبّرت عن التجربة الإنسانية في البُعد والفقد، وهو من أصدق ما أبدعه الشعراء قديمًا وحديثًا، إذ يجمع بين الشكوى والأنين وبين الأمل والرجاء. قيل: أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها. وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة وإلى مسقط رأسها مشتاقة. وقيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر.

تعريفه:

في اللغة: الغربة مأخوذة من الغَرْب، أي البُعد عن الوطن والأهل، والحنين هو الشوق والأنين إلى شيء محبوب فارقَه الإنسان. ***وفي الاصطلاح الأدبي***: هو لون من الشعر يعبر فيه الشاعر عن مشاعره تجاه وطنه أو أهله أو ماضيه، فيستحضر صور الحنين والذكريات، ويصف آلام الاغتراب ووحشة البعد، ويقابلها بالأمل في العودة أو الرضا بالقدر. قال حنا الفاخوري: "هو الشعر الذي يعبّر فيه الشاعر عن آلامه في البُعد عن وطنه وأهله، ويسترجع ذكريات الماضي في صورة وجدانية مؤثرة". ويضيف شوقي ضيف: "الحنين نزعة إنسانية قديمة، تجلت في الشعر العربي منذ الجاهلية في الوقوف على الأطلال".

تاريخه:

في الجاهلية: ظهر في شعر الوقوف على الأطلال، حيث كان الشاعر يقف عند ديار الأحبة ويسترجع ذكرياتهم. قال عنترة:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالجَوَاءِ تَكَلَّمِي ... وَعِمِّي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا ... فَدَنٌ لأَقْضِي حَاجَةَ المُتَلَوِّمِ

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ ... عَسِرًا عَلَيَّ طِلاَبُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

في صدر الإسلام: خفّ حضوره لانشغال الشعراء بالموضوعات الدينية والسياسية. روي أن أبان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الأذخر وقد أعذق والنمام وقد أورق[1]. فاغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم. في العصر الأموي والعباسي: ازداد مع اتساع الدولة الإسلامية، واغتراب الشعراء في الأمصار للفتوحات. قال الفرزدق:

أَهاجَ لَكَ الشَوقَ القَديمَ خَيالُهُ ... مَنازِلُ بَينَ المُنتَضى وَمُنيمِ

وَقَد حالَ دوني السِجنُ حَتّى نَسيتُها ... وَأَذهَلَني عَن ذِكرِ كُلِّ حَميمِ

عَلى أَنَّني مِن ذِكرِها كُلَّ لَيلَةٍ ... كَذي حُمَةٍ يَعتادُ داءَ سَليمِ

في الأندلس: بلغ ذروته بسبب البعد عن المشرق، وارتبط بسقوط المدن وضياع الأوطان. يقول أحمد حسن الزيات: "كان شعر الأندلسيين مشبعًا بالحنين، لأنهم عاشوا غرباء عن المشرق، ثم غرباء عن أوطانهم بعد سقوط المدن". قال أبو البقاء الرندي في الحنين والرثاء للأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ ... فلا يُغرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أحدٌ وانهدَّ ثهلانُ

أصابها العينُ في الإسلامِ فارتزأتْ ... حتى خلتْ منهُ أقطارٌ وبلدانُ

فاسأل بلنسيةَ ما شأن مرسيةٍ ... وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ؟

وأين قرطبةٌ دارُ العلومِ فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ

وأين حمصُ وما تحويه من نزهٍ ... ونهرها العذبُ فياضٌ وملآنُ

في العصر الحديث: عاد بقوة مع هجرة الأدباء العرب إلى أوروبا والأمريكتين، حيث عبّروا عن ألم الفراق وحنينهم إلى الشرق، أمثل جبران خليل، وإيليا أبي ماضي، الشاعر القروي، وفوزي معلوف، ونسيب عريضة. يقول عيسى الناعوري: "أدب المهجر هو أدب الحنين والاغتراب، فيه عبّر الشعراء عن شوقهم إلى الشرق وألمهم في الغربة". قال رشيد أيوب:

يا ثلج قد هيجت أشجاني ... ذكرتني أهلي بلبنان

---

[1]- كناية عن وفرة النبات وخصوبة الأرض. الأذخر: نبات طيب الرائحة، يُستعمل في الوقود والتطييب. أعذق: أثمر وأخرج عذوقه . النمام: نوع من الحشيش أو الكلأ، أورق: أخرج ورقه، صار ذا ورق أخضر.

بالله قل عني لجيراني ... ما زال يرعى حرمة العهد

ومثله مسعود سماحة حيث يقول:

أحب بلادي وإن لم أنم ... قرير الجفون بأحضانها

فكم أنَّتِ النفس من يأسها ... وناءت بأثقال أشجانها

تودّ الرجوع إلى عشها ... وليس الرجوع بإمكانها

خصائصه:

طبع أدب المهجر بالتجديد والقوة والثورة على كل قديم، ومال بعض أصحابه إلى نوع من التفلسف، وأغرموا بجرس الكلمات ووقعها الموسيقي، مما دفعهم إلى التساهل في نواحي الصرف والنحو والعروض، وربما يعود هذا إلى بعدهم عن لغتهم الأم، وعدم دراستهم لقواعدها دراسة وافية، وغدا أدبهم متحررا من القيود اللفظية والاجتماعية، وداعيا إلى التحرر الفكري والعاطفي.

موضوعه:

صور أدب المهجر آلام البعد والفراق، وأوجاع النفوس وقلقها وحيرة أصحابها، ويعود ذلك إلى عدم تأقلم العرب مع طبيعة ذلك المجتمع الآلي، ووقد عبّر هذا الأدب عن حنين طاغ إلى أرض الوطن وصوت الأقرباء، فطبعت تأملاتهم بمسحة رومانتيكية، أكدت القلق والتشاؤم والحيرة، والتفاؤل والأمل أحيانا أخرى.

نماذج من شعر الغربة والحنين:

ألف الجاحظ كتابا سماه: رسالة الحنين إلى الأوطان، جمع فيها أخبارا وحكما وأقوالا في غرض الحنين والاشتياق. رُوِيَ أَن مَيْسُون بنت بَحْدَل لما اتَّصَلت بِمُعَاوِيَة، ونقلها من البدو إِلَى الشام كَانَت تكْثر الحنين إِلَى أناسها والتذكر لمسقط رَأسهَا، فاستمع إِلَيْهَا ذَات يَوْم وَهِي تنشد[2]:

لبيت تخفق الْأَرْوَاح فِيهِ ... أحب إليّ من قصر منيف

وَلبس عباءة وتقر عَيْني ... أحب إليّ من لبس الشفوف

وَأكل كسيرة فِي كسر بَيْتِي ... أحب إِلَيّ من أكل الرَّغِيف

---

[2]- **الأرواح**: جمع ريح؛ **منيف**: شامخ ومرتفع؛ **الشفوف**: الثياب الرقيقة الشفافة؛ **الطراق**: الغرباء الذين يطرقون الباب؛ **بكر**: جمل صغير السن، قوي ونشيط؛ **الأضعان**: قوافل الإبل التي تحمل النساء والأمتعة في الرحلات؛ **زفوف**: بطيء الحركة ويصدر صوتا كالزفير؛ **الخرق**: الرجل قليل العقل؛ **نجيف**: ضعيف البنية أو هزيل؛ **العلج**: الرجل القوي من غير العرب؛ **عليف**: كثير الأكل ضخم.

وأصوات الرِّيَاح بِكُل فج ... أحب إليّ من نقر الدفوف

وكلب ينبح الطراق دوني ... أحب إليّ من قطّ ألوف

وَبكر يتبع الأظعان صَعب ... أحب إليّ من بغل زفوف

وخرق من بني عمي نجيف ... أحب إِلَيّ من علج عليف

فَلَمَّا سمع مُعَاوِيَة الأبيات قَالَ لَهَا: مَا رضيت ابْنة بَحْدَل حَتَّى جَعَلتني علجا عليفا.

وقال الشاعر: في الحنين إلى المحبوبة:

أمرُّ على الدّيارِ ديارِ ليلى ... أُقَبِّلُ ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبُّ الديار شَغَفْنَ قلبي ... ولكنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

ويقال في ذم الغربة: عسرك في بلدك خير من يسرك في غربتك. ونظمه أحدهم شعرا فقال:

لقرب الدار في الإقتار خير ... من العيش الموسع في اغتراب

قال البرعي (شاعر من العصر المملوكي) في الحنين إلى البقاع المقدسة

يا راحلينَ إلى منىً بقيادي ... هيجتُمو يومَ الرحيل فؤادي

سرتم وسار دليلكم يا وحشتي ... والعيس أطربني وصوت الحادي

حرمتمُ جفني المنام لبعدكم ... يا ساكنين المنحنى والوادي

فإذا وصلتُم سالمينَ فبلّغوا ... منّي السلام أهيلَ ذاك الوادي

وتذكّروا عند الطواف متيماً ... صبّاً فني بالشوق والإبعادِ

لي من ربا أطلال مكّة مرغبٌ ... فعسى الإلهُ يجودُ لي بمرادي

ويلوحُ لي ما بين زمزم والصفا ... عند المقام سمعت صوت منادي

ويقول لي يا نائماً جدَّ السُرى ... عرفاتُ تجلو كلّ قلبٍ صادي

تاللهِ ما أحلى المبيت على منى ... في يوم عيد أشرفِ الأعيادِ

الناسُ قد حجّوا وقد بلغوا المنى ... وأنا حججتُ فما بلغتُ مرادي

حجوا وقد غفر الإلهُ ذنوبَهُم ... باتوا بِمُزدَلَفَه بغيرِ تمادِ

ذبحوا ضحاياهُم وسال دماؤُها ... وأنا المتَيَّمُ قد نحرتُ فؤادي

حلقوا رؤوسَهمو وقصّوا ظُفرَهُم ... قَبِلَ المُهَيمنُ توبةَ الأسيادِ

لبسوا ثياب البيض منشور الرّضا ... وأنا المتيم قد لبست سوادي

يا ربِّ أنت وصلتَهُم وقطَعتني ... فبحقِّهِم يا ربّ حل قيادي

باللهِ يا زوّارَ قبرِ محمّدٍ ... من كان منكُم رائحٌ أو غادِ

لِتُبلغوا المُختارَ ألفَ تحيّةٍ ... من عاشقٍ متقطّعِ الأكبادِ

قولوا له عبدُ الرحيم متيّمٌ ... ومفارقُ الأحبابِ والأولادِ

صلّى عليكَ اللهُ يا علمَ الهدى ... ما سارَ ركبٌ أو ترنَّمَ حادِ

وقال إيليا أبو ماضي في الحنين إلى بلاد الشام يوم أقام في مصر:

تَحُنُّ إِلى بِلادِ الشامِ نَفسي ... أَقطُرَ الشامِ حَيّاكِ الغَمامُ

وَما غَيرُ الشَآمِ وَساكِنيهِ ... لَبانَتنا وَإِن بَعدَ الشَآمُ

وَلَولا أَن في مِصرَ مُقامي ... لَعَمرُ أَبيكَ ما طالَ المُقامُ

مَضى عامٌ عَلَيَّ بِأَرضِ مِصرٍ ... وَذا عامٌ وَسَوفَ يَجيءُ عامُ

وَما مِصرُ الَّتي مَلَكَت فُؤادي ... وَلَكِن أَهلُها قَومٌ كِرامُ

وِدادُهُم عَلى الأَيّامِ باقٍ ... وَجارُهُم عَزيزٌ لا يُضامُ